خلل فى مسيرة الأمة

أ. د/ محمد السيد الجليند(*)

لا شك أن موضوع هذه الورقة يمس مشكلة كبرى تعانى فيها الأمة الإسلامية منذ ثلاثة أو أربعة قرون من الزمن، إنها مشكلة التخلف الحضارى عن مواكبة العصر علميا واقتصاديا وسياسيا.

ولقد شغلت هذه القضية عقول المفكرين المعنيين بهموم الأمة منذ وقت بعيد، فلم يغب عن عقول أبنائها البحث والتساؤل عن الأسباب التى أدت بالمسلمين إلى هذا الواقع المرير. فشغل بها مفكرون كبار منذ القرن التاسع عشر وربما قبل ذلك بكثير.

ولو تبعنا تاريخ المنطقة وقرأناه بعيون عربية وإسلامية ربما نجد هناك محاولات كثيرة ملأت أرجاء العالم العربى بقصد النهوض بالأمة من واقعها فكانت ثورة محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب تمثل نهضة روحية لإحياء العقيدة الصحيحة فى قلوب المسلمين ومحاولة القضاء على مظاهر الجهل والخرافة ومحاربة الشعوذة والسلوك الهابط الذى لا يقره عقل ولا دين.

وكانت ثورة المهدى بالسودان تمثل نهضة سياسية ضد الاستعمار ومناشدة للحرية السياسية وحق الشعوب فى تقرير مصيرها وكانت ثورة السنوسى فى ليبيا وعبد القادر الجزائرى وابن باديس، وكان الهدف الأسمى

(*) أستاذ الفلسفة- كلية دار العلوم.

obeikandl.com

لكل الثورات هو تغيير واقع الأمة وإحياء الروح الدينية الصحيحة ارتداء وشاح القلم والمنهج العلمى فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية.

ثم جاءت حركة الإصلاح الدينى والاجتماعى فى مصر على يد الإمام محمد عبده وشيخه الأفغانى ما نادت من الثورات التى سبقتها به ضرورة التعبير الشامل لواقع الأمة والنهوض بها والتخلص من قبضة الاستعمار التى استحكمت على مقاليد الأمور السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وتحولت مصر على يد بريطانيا المستعمرة إلى مزرعة كبرى تحصد منها ثمارها (القطن والحبوب) ولا تترك لأبنائها إلا الفتات.

نعم. لقد شغل واقع الأمة عقول مفكريها من زمن بعيد وحاولوا طرح العديد من الأسئلة عن أسباب هذا الوقع المؤلم، فكتب رشيد رضا وشكيب أرسلان عن أسباب تخلف المسلمين وغيرهم ... وغيرهم، وأخذ كل فريق يتلمس الأسباب انطلاقًا من تشخيصه لنوع الأزمة التى تعانى منها الأمة وهل أسباب هذه المعاناة هو تدهور الاقتصاد بسبب إحكام قبضة الاستعمار على مقاليد الحركة الاقتصادية المتمثلة فى وسائل الإنتاج وسوق الاستهلاك؟ هل ترجع أسباب هذا الواقع إلى سوء الوضع السياسى فى المجتمع العربى وتسلط العقلية العسكرية على الشعوب مع ما تتميز به العقلية العسكرية من مجافاة لمنطق العلم والسياسة فى كثير من الأحيان وأخذها بمنطق القوة والتسلط؟

هل ترجع الأسباب إلى الجهل وتفشى الأمية مما ترتب عليه ضياع حقوق المواطن وتغييب إرادة الأمة؟

أم تتجسد هذه الأسباب فى وطأة الاستعمار وإحكام قبضته على المنطقة - وخاصة بعد أن توطنت الصهيونية فى المنطقة وأخذت تمد خيوطها العنكبوتية إلى أصحاب القرار السياسى فى العالم الإسلامى بأسلوب الترغيب أحيانًا وأسلوب الترهيب أحيانًا أخرى؟ ولا يخفى على من يتابع ما يجرى فى المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية أن هذا السبب الأخير قد يكون له الحظ الأوفر من بين الأسباب السابقة فى تدهور الوضع فى المنطقة العربية إلى الحد الذى وصلت إليه.

ولكن لا بد لنا من وقفة نستدعى فيها تاريخ أمتنا لنتعرف منه على المواقف التى مَثَّلت منعطفات أو منحنيات فى مسيرة تاريخها ونتعرف أيضًا كيف اجتازت الأمة هذه المنحنيات بروح قوية وعزيمة لا تعرف الكلل ابتداء من تاريخ الحروب الصليبية إلى حرب أكتوبر الأخيرة بدورات ومنحنيات، بعضها يمثل الانكسار والهزيمة والبعض الآخر يمثل الانطلاق والبطولة والانتصار، وهذا هو شأن الأمم والحضارات فلا يخلو تاريخ أمة من فترات الانكسار والهزيمة ولكن الأمم الناهضة هى التى تعرف كيف يتحول الانكسار على يد أبنائها إلى زاد ومشاعل تضىء لها الطريق إلى النصر والنهوض، كما انتصر صلاح الدين فى حطين وسيف الدين قطز فى عين جالوت، وكما انتصر المصريون على الحملة الفرنسية وحملة فريزر وفى حرب أكتوبر فالعبرة التاريخية ينبغى أن تكون هى الدرس المستفاد من وقائع التاريخ.

نعم، قد يقال: إن الظرف التاريخى قد تغير ولا بد أن يتغير نمط التفكير وأسلوب التحدى للواقع. هذا صحيح بل هو من ألزم الضروريات التى تجب مراعاتها فيما نحن بصدده لكن مع ذلك تبقى الركيزة الأساسية فى نهضة كل أمة وبناء مستقبلها ... إنها إرادة الأمة، إنها إرادة التحدى للواقع، إنها إرادة النهوض وتجاوز هذه الأزمات وهذه الإرادة ينبغى ألا تتحمل مسئولية النهوض بها جهة واحدة ولا جهة ثقافية معينة ولا طرف معين من أطراف البناء الاجتماعى للأمة. إنها مسئولية الأمة كلها أفراد أو جماعات حكام ومحكومين، مثقفين وعوام، لأن الخطر الذى يواجه الأمة لا يعرف الاستثناء أو الاختيار فلا بد أن يسهم كل فرد فى البناء بما يستطيع.

ومن قراءتنا لتاريخ النهضات للشعوب نجد أن عوامل النهوض التى أسهم بها الأفراد والجمعيات الأهلية كانت الأساس والركيزة لبناء النهضة وتشييد الحضارة. قبل أن تنهض بذلك الحكومات أو المؤسسات الرسمية للدولة وهذا واقع فى كل بلاد العالم. وكان واقعًا فى تاريخ أمتنا، من خلال الأوقاف الإسلامية على المشروعات الخيرية التى نهضت بها الأمة فكان هناك أوقاف على مؤسسات التعليم ودور الحكمة التى يمثلها فى عصرنا مراكز البحوث العلمية وأوقاف على دور اليتامى والمسنين وأوقاف على الأسبلة (جمع سبيل وهو مكان السقاية بالماء للمحتاجين) وأوقاف على الأرامل ومن لا عائل لها. وأوقاف على الكلاب الضالة والحيوان الضال. فأين الدور الذى كانت تنهض به الأوقاف الإسلامية فى عصرنا؟ أليس من المفيد إحياء دور الوقف وحسن توظيف أمواله فى تأسيس مراكز البحث العلمى وابتعاث العلماء فى جميع التخصصات بعثًا لنهضة علمية نحن

أحوج أمم الأرض إليها؟ لماذا لا ينهض الأزهر بالشروع فى إعادة نظام الوقف الإسلامى من جديد والبحث عن أفضل الوسائل لحسن توظيفه لديهم فى بناء الأمة وبعث نهضتنا من جديد؟ ... لم يكن الوقف فى الإسلام مقصورًا على المساجد والأزهر فقط كما قد يظن ذلك البعض، لقد شمل الوقف كل شئون الحياة علميًا واجتماعيًا لم تكن الدولة تتحمل أعباء مالية فى قليل ولا كثير ... فلماذا لم ينتبه الأزهر إلى إحياء هذه السنة لتعيد إلى الحياة الإسلامية وجهها الاجتماعى المشرق، حتى تتفرغ الدولة لما هو أهم من ذلك. هذا جانب مهم على مستوى العمل والتطبيق يجب إحياؤه، ولكن هناك جانبًا آخر نود الإشارة إليه وهو أن الوفاق الوطنى بين صفوف الأمة عامل مهم فى توحيد الكلمة والجهد وتوحيد الهمة والإرادة، فلم يعد هناك متسع للتشرذم والتحزب الثقافى والسياسى لأن القضية الآن هى أن تكون أو لا تكون. والعدو متربص بالأمة كلها على اختلاف توجهات أبنائها فلماذا لا نتوحد الكلمة أمام عدو لا يفرق بين اليمين أو اليسار ولا بين تقدمى ورجعى ولا بين كبير ليبرالى ومحافظ، فالكل عنده يمثل طرفًا واحدًا ينبغى استئصاله. ولم يعد هناك متسع لمن يدعى أنه يملك الحقيقة المطلقة أو يدعى أنه وحده على صواب أو أنه الأحق بالسلطة واحتكارها دون غيره لا بد من إعادة النظر فى أنماط التفكير التى تأسست عليها بنية العقل العربى المعاصر ... لابد من إعادة قراءة التاريخ السياسى والاجتماعى والثقافى الذى كون هذه البنية العقلية المعاصرة، لنقف على العناصر التى ينبغى أن نتخلص منها فى مناهجنا الدراسية والإعلايمة والثقافية ونتعرف أيضًا على العناصر الضرورية التى نحتاج إليها فى إعادة صياغة العقلية

المستقبلية للأمة. ونحن من جانبنا لا ندعى أن ما نشير إليه هنا من عناصر يمثل الخط الذى لا يجوز تجاوزه وإنما هى علامات قد تضىء الطريق لصاحب القرار، وإن شئت فقل هى شمعة تنتظر من يضيف إليها ليزداد النور ويكون نور على نور ويتضح الطريق أمام أصحاب القرار أكثر وأكثر.

ذلك أن المراجعة النقدية لمكونات العقل العربى المعاصر تكشف لنا عن أوجه قصور متعددة أصابت مناهجنا الدراسية بالركود والجمود مما انعكس على عقلية الأمة فأصابها بشىء من السكون إلى الواقع والرضى به والالتفاف حوله ورفض تجاوزه.

ولكن القضية تحتاج إلى إعادة نظر ومراجعة شأن كل شىء يتعلق بشئون الحياة المتغيرة المتطورة .. وينبغى أن نفرق فى هذا بين ما اتفق عليه بأنه ثابت لا يتغير من مسائل الأصول وثوابت العقيدة، ولكن الذى يحتاج منا إلى مراجعة ومتابعة لضرورة التجديد والتغيير حسب تجدد الظروف ومستحدثات العصر من مشكلات وقضايا تفرض بطبيعتها البحث عن حلول ومواجهة لأنها لم تكن موجودة فى عصر التأليف والتأسيس للعلوم الإسلامية وكذلك الأمر بالنسبة لبعض القضايا التى ورثناها فى تراثنا وجعلناها ركنًا أساسيًا فى مناهجنا الدراسية فإنها تحتاج إلى مراجعة لنتخلص من المسائل التى نشأت تحت ظروف تاريخية معينة وأصبحت تمثل عبئًا ذهنيًا على المعلم والمتعلم وانتهت ظروفها التاريخية ومناسبتها الثقافية، وحدثت أمور وظهرت إشكالات ثقافية لم تكن موجودة من قبل ينبغى أن تأخذ مكانها وتحتل مكانتها فى مناهجنا الدراسية كما فعل

الأقدمون تمامًا بقضايا ومشكلات عصرهم. وسوف أشير هنا إلى بعض القضايا التى أرى أهمية التوقف أمامها بنظر نقدى أملا فى الإصلاح.

خلل فى فقه الاعتقاد

(١)

من الأمور التى كان لها دور كبير فى واقع الأمة الإسلامية هذا الخلل الخطير الذى أصاب الأمة فى فهم عقيدتها والوقوف بهذه العقيدة عند مجرد ترديد الشهادتين وإقامة الشعائر الدينية، دون ترجمة لهذه العقيدة إلى واقع يعيشه المسلم فى صباحه ومسائه يحيا به المسلم سحابة نهاره وسواد ليله، وكيف اقتصر حظ المسلم من دينه على هذه الأمور النظرية والمظهرية معا دون أن تملأ هذه العقيدة على المسلم حياته كلها فتشغل قلبه وتحرك جوارحه تحت مظلة الاعتقاد الصحيح علمًا وعملاً اعتقادًا وسلوكًا. ولا تحسبن يا أخى أن نهضة الأمم وحضاراتها - أى أمة - سادت أو قامت دون أن يكون الدافع والمحرك لها فى نفوس أبنائها وفى عقولهم عقيدة واعتقاد، إن هذا الأمر لم تخل منه حضارة أى أمة على ظهر الأرض؛ مهما كان اعتقادها وعقيدتها، صحيحة أو باطلة، مقبولة فى العقل أو مرذولة، فإن العقيدة ودورها فى نهضة الأمم سنة من سنن التاريخ، وعليك أن تدور بناظريك فى الحضارة الإنسانية قديمها وحديثها، لا تجد أمة نهضت وقامت لها حضارة إلا كان الدافع لذلك والمحرك له اعتقاد أبنائها، وإياك أن تغتر بزخرف القول الذى يردده البعض عن الحضارة الأوربية أنها حضارة علمانية لا دين لها ولا عقيدة. فإن ذلك من خلل

الرأى الذى استقاه البعض من ظواهر شكلية تطفو على السطح أحيانًا فى الكتابات والسلوك الأوربى، والواقع أن هذه الحضارة مسكونة بعقيدة تحركها على محاور متعددة لتحقق بذلك مقاصد وغايات تبنتها الحضارة الأوربية قديمًا ولا زالت تحركها إلى الآن ولعل من أبرز هذه المقاصد الأوربية:

(١) التفوق والعنصرية الذى صرح به أفلاطون وأرسطو قديمًا وصرح به رينان ووزير خارجية إيطاليا حديثًا.

(٢) مركزية الحضارة الإنسانية الذى طفحت بالتعبير عنه كتابات المستشرقين.

(٣) نفى الآخر وعدم الاعتراف به وهذه الركائز الثلاث تتبناها السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية وجسدتها فى قالب العولمة الذى تروج له الآن، والحضارة الإسلامية ليست بدعًا فى ذلك فإن المحرك الأساسى لبنائها ونهضتها كانت وستظل هى العقيدة الإسلامية باعتبارها العامل المحرك للمسلم ليعمل ويكد، وللعالم المسلم ليبحث ويكتشف، وللحاكم المسلم ليقيم العدل ويسوس بالحق، وللغنى المسلم ليأخذ بيد الفقير والمسكين لأن الكل يستظل بعقيدة تجعل منه خليفة لله فى أرضه، وأمينًا على كونه، يعبده العالم فى محراب العلم، كما يعبده الساجد فى محراب الكعبة، ويوم أن فقه المسلمون عقيدتهم على هذا النحو سادوا الدنيا وعمروها. سادوها بالعمل وعمروها بالعلم. فهل لنا أن نفقه عقيدتنا على نحو عملى كما كان الأولون، دون الاكتفاء منها بالشكليات والمظهر.

خلل فى فقه الإعتقاد

(٢)

من مظاهر الخلل الذى أصاب مناهجنا التعليمية قضية الفصل بين القضايا العقدية وتطبيقها على مستوى الدرس والتعليم وعلى مستوى السلوك والعمل، مما ترتب على ذلك انفصال فى ذهنية الدارس بين الاعتقاد والعمل، بين المبدأ والسلوك، إن هذا الفصل – مع اعترافنا بأنه مدرسى – قد خلق نوعًا من الانفصال وإن شئت فقل الانفصام بين الاعتقاد والسلوك، بين الإيمان والعمل، بين المبدأ والتطبيق، وتحولت مسائل الاعتقاد إلى نوع من التصديق القلبى الذى لا يمتد أثره إلى تحريك الجوارح لتعمل تطبيقًا لهذا الاعتقاد القلبى، وهذا بالتالى قد أدى إلى نوع جديد من الإرجاء الذى زحزح العمل والسلوك عن مكانته الطبيعية فى ضرورة الارتباط والاقتران بالتصديق القلبى. هذا الارتباط الضرورى الذى عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله: "**ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل**"، فجعل عمل الجوارح علامة وآية دالة على صدق ما فى القلب، ولعل ما نشاهده فى حياة الناس وسلوكهم من الخلل الواقع فى الاكتفاء من الإيمان بالشكل دون المضمون وبالظواهر الشكلية دون الوصول للجوهر، يرجع فى أساسه إلى الخلل المنهجى الذى دأبت عليه مناهجنا الدراسية والتعليمية فى الفصل بين القضية العقيدية وما يترتب عليها فى السلوك والواقع.

obeikandl.com

ولقد تنبه إلى خطر هذه القضية الإمام أبو حامد الغزالى وأشار فى مقدمة كتابه "إحياء علوم الدين" إلى الخطر الذى يعانى منه الفرد المسلم والمجتمع المسلم من الانفصام الواقع بين الاعتقاد والسلوك وألف كتابه العظيم وسماه "إحياء علوم الدين" لينبه بذلك إلى أن عقيدة المسلم ما لم يحولها المرء إلى واقع وسلوك فهى عقيدة ميتة لا تنتج أثرًا ولا تنهض بالمجتمع، ولذلك جعل مقدمة كتابه بابًا مستقلا عن قواعد العقائد أو أصول الدين ثم أخذ يشرح فى ثنايا كتابه المفردات والمسائل الجزئية التى تتفرع وتبنى على هذه القواعد الكلية، وهذه المسائل الجزئية تشكل فى مجموعها الدائرة الكبرى التى ينبغى أن يسير فى فلكها المسلم لينفع بذلك نفسه كما ينفع مجتمعه، كما يظهر مدى حرص الإسلام على أن تكون حياة المسلم ذات هدف وغاية تستمد قيمتها من قيمة الإنسان فى الوجود وغايتها من غاية وجود الإنسان نفسه باعتباره خليفة الله فى كونه، لتتحول حياة المسلم إلى حركة وعمل دائب وبالتالى يتحول المجتمع كله من حالة السكون والموت إلى حركة نابضة بالحياة، وما لم يتحول المجتمع المسلم من حالة السكون التى يعيشها ويحول عقيدته من مستوى الإيمان القلبى إلى سلوك وواقع يعيش فى ظله الفرد والمجتمع لن تنهض الأمة من كبوتها لأن قانون النهضة مرتبط بالأخذ بالأسباب وكفانا تمنٍ بدون عمل.

خلل فى المنهج والتوصيف

(٣)

لقد شغل كثيرون من علماء الأمة بالتأليف فى تصنيف العلوم وتوصيفها؛ فعل ذلك الفلاسفة الكبار أمثال: الكندى والفارابى وابن سينا والخوارزمى وابن خلدون، وجاء توصيفهم للعلوم فى معظمه على نحو يقسم العلوم إلى علوم شرعية وغير شرعية أو علوم دينية ومدنية أو علوم الحكمة، أما العلوم الشرعية فتشمل العلوم التى تتصل بخدمة الكتاب والسنة وسماها البعض علوم الوسائل مثل: النحو والصرف وعلم اللغة والتفسير، والعلم بأسباب النزول والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وعلم القراءات وكذلك ما أطلق عليه مجموعة "علوم الحديث" مثل: مصطلح الحديث وعلوم المتن والسند .. إلخ وعلم الفقه والأصول وعلم الكلام أو علم أصول الدين.

ويتضح من تاريخ نشأة هذه العلوم أنها كلها قد نشأت استجابة لحاجات دعت إليها الضرورة التى تمثلت فى ظهور اللحن فى قراءة القرآن وظهور نوع من التفسير القرآنى مخالفًا فى بعض جوانبه ما أثر عن الرسول وصحابته. فهذه العلوم فى جملتها نشأت فى أحضان الكتاب والسنة ولخدمة النص القرآنى تفسيرًا وتأويلاً وضبطًا لألفاظه، ومن هنا فضل المصنفون أن يطلقوا عليها "علوم شرعية" فى مقابل مجموعة العلوم المدنية، وترتب على هذا الوصف "شرعية" فهم خاطئ نشأ فى أذهان المسلمين أن ما عدا هذه العلوم لا يوصف بأنه علم شرعى ولا يستحق هذا النسب الشريف. وبالتالى فإن الاشتغال بهذه العلوم المدنية يكون عملا غير شرعى بل ربما نسبه البعض إلى البدعة، ومعلوم أن العلوم المرتبة حسب

هذا التصنيف هى علم الفلك والطب والرياضة والهندسة والكيمياء والفيزياء.. إلخ مجموعة العلوم الكونية التى نبغ فيها علماء كبار فى تاريخ الحضارة الإسلامية أمثال: البيرونى وابن الهيثم والخوارزمى وجابر بن حيان .. وغيرهم من رواد هذه المدرسة العلمية وكان نصيب هذه الكوكبة من العلماء الغمز واللمز والنيل من عقائدهم لأن بعض المشتغلين بالعلوم الشرعية وجدوا فى مؤلفات هؤلاء أقوالا وآراء لم يكن لهم علم بها وليس لديهم من الكتاب والسنة دليل على صحتها. وترتب على ذلك أن نشأ نوع من الزهد والعزوف عن الاشتغال بهذه العلوم حتى إن أبا حامد الغزالى (حجة الإسلام) يقول: كنت أدخل القرية أو المحلة فأجد فيها أربعين فقيهًا ولا أجد بها إلا طبيبًا واحدًا من أهل الذمة، ولعل هذا كان بسبب التوصيف لهذه العلوم بأنها ليست مندرجة ضمن العلوم الشرعية. وهذا خطأ منهجى ينبغى أن يتدارك ويصحح، لأن العلوم الكونية جديرة بالوصف "الشرعى" مثل نظيراتها تمامًا، وأولى بالمشتغلين بها أن يوصفوا بأنهم يمارسون عملا شرعيا دينيا ندب إليه الشرع وأمر به، وقد جاء القرآن الكريم لينبه إلى أهمية وضرورة الاشتغال به فأمر به وجعل الرسول طلبه فريضة، لأن العلم الكونى هو المدخل الطبيعى للتعرف على الله والتعرف على صفاته وهو النافذة الوحيدة لتسخير الكون لمصالح الإنسان وتحقيق خلافة الإنسان على أرض الله، وهو المفتاح العلمى لتحقيق خشية الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٧- ٢٨]

obeikandl.com

أى بهذه العلوم السابقة فى الآية. فانظر كيف جعل القرآن هذه العلوم مدخلاً عمليًا لخشيته سبحانه فى عبارة بلاغية قاصرة خشية الله على العالم بصنعته.

كلام عن علم الكلام

(٤)

تأسس علم الكلام الإسلامى للقيام بمهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد مخالفيها من منكرى الأديان أو منكرى النبوات، فأسس منهجه على أدلة العقل وبراهين المنطق فى الدفاع عن صحيح العقيدة مستعينًا فى ذلك بنصوص القرآن الكريم وصحيح السنة المطهرة، وقد أبلى المتكلمون فى ذلك بلاء حسنًا وقد أدوا دورهم التاريخى فى الذب عن العقيدة الإسلامية ودحض الأباطيل والأوهام التى كان يرددها المخالفون، والذى يقرأ تاريخ هذا العلم الرائع يجد أنه كان يهتم بقضايا ومشكلات عقائدية أفرزتها طبيعة الاحتكاك الثقافى بين الحضارة الإسلامية وأصحاب الحضارات الأخرى والقضية معروفة لا داعى لتفصيل القول فيها.

وفى مطلع القرن الثانى الهجرى وجدنا مشكلات علم الكلام تظهر واحدة تلو الأخرى مثل مشكلة خلق القرآن، مشكلة حرية الإنسان، مشكلة الذات والصفات. وكلما ظهرت مشكلة عقائدية كان يتصدى لها علماء الأمة - رضى الله عنهم أجمعين - بالتحليل العقلى والتفنيد والشرح وبيان ما فيها من خطأ وتدليس ثم يوضحون الرأى الصواب الذى يؤيده العقل ويدل عليه الشرع بالحجة الواضحة والدليل المعقول، فأدوا رسالتهم كما فرضها عليهم

دينهم أما الأجيال التالية ونحن منهم، فقد توقفنا حيث وقفوا هم، وأخذنا نحلل ونفند ونشرح ونوضح المشكلات التى طرحت عليهم هم، والتى عاشوها فى عصرهم وأهملنا تمامًا المشكلات التى نعيشها نحن فى عصرنا، والتى تحتاج منا أن نحللها ونشرحها ونتولى تفنيدها وبيان وجه الحق فيها وأن نجعل ذلك جزءا من مهامنا العلمية حتى ننهض بواقعنا كما نهضوا بواقعهم، بدلا من أن نكتفى باجترار آرائهم وتكرار أقوالهم، ولا يظن أحد أننى بذلك أقلل من شأن علماء الكلام أو أقلل من جهدهم كما قد ظن ذلك بعض إخواننا، ولكننى أنعى على علماء عصرنا هذا السكون العقلى وأنبه إلى وجوب أن نفعل كما فعل الأقدمون، وأن نعيش مشكلات واقعنا كما عاش علماء الأمس مشكلات واقعهم وقاسوها بمقياس العقل والشرع معا فأخذوا منها وردوا عليها، وقبلوا من غيرهم وأعطوا فلماذا لم نفعل مثل ما فعلوا هم؟ إن واقعنا المعاصر مزدحم بالمشكلات التى لها أثرها فى عقول الناس وفى سلوكهم فلماذا لم نهتم بها ونجعلها جزءًا من مفردات مناهجنا الدراسية ليتعلم الشباب من ذوى الاختصاص وجه الحق فيها ولكى نصحح مفهومها عند الناس، خذ مثلا بعض المشكلات التى طفحت على السطح الثقافى مثل القول بتاريخية الأديان، تاريخية القرآن، تاريخية الأحكام الشرعية كالميراث مثلا، فقه الجهاد، الغلو والتطرف .. الإنسان ومكانته – الحرية .. إلخ هذه المشكلات التى تحتاج إلى بحث دقيق وتحليل ونقد وتقديم الرأى الدينى العقيدى فيها، إن مشكلات علم الكلام القديمة قد ظهرت فى ظروف تاريخية تشبه تمامًا واقعنا المعاصر من وجوه كثيرة فتناولها العلماء الكبار فهمًا وفقهًا ونقدًا وتفنيدًا فلماذا لم نطرح

هذه المشكلات المعاصرة وغيرها ضمن برامجنا الدراسية ليتعرف الشباب على أصول هذه المشكلات ومصادرها وظروف البيئة الثقافية التى أفرزتها وكيف ولماذا وفدت إلينا وما هى الأهداف والمقاصد التى يبتغيها الغرب من طرح هذه المشكلات على العالم الإسلامى.

عقيدة السببية

(٥)

من عوامل الخلل فى مسيرتنا التاريخية أننا أغفلنا تمامًا الأخذ بقانون السببية أو الاعتقاد بالسببية على أنها دين وعقيدة وسنة من سنن الله فى الكون، وأن القرآن الكريم نبه إلى أهميتها وضرورة الإيمان بها على أنها نظام ثابت فى الكون ونظام مطرد ولا يتخلف أبدًا إلا لتحقيق مشيئة الخالق سبحانه وتعالى عند إظهار المعجزة على يد النبى تصديقًا له وتأييدًا لرسالته، ألا فليعلم المسلمون أن عصر الرسالات قد انتهى وختم بإرسال نبينا ومعلمنا محمد صلى الله عليه وسلم، وليعلم المسلمون أيضًا أن عصر المعجزات قد انتهى بوفاته صلى الله عليه وسلم، ومن دلائل الإيمان به والتصديق برسالتــه أن نعتقد اعتقادًا جازمًا أن سنن الله ماضية ومطــردة لا تتخلف وأن من طلب النهضة بغير الأخذ فى أسبابها فقد طلب المستحيل، ولذلك أنبه هنا إلى أهمية الأخذ بالأسباب كمدخل ضرورى للوصول إلى الغايات وتحصيل المستحيل، بل إننى أقترح أن تحتل عقيدة السببية مكانتها ومكانها فى مناهجنا الدراسية كجزء أساسى من مفردات المنهج الدراسى حتى ينشأ الجيل وهو مؤمن بهذه القضية كإيمانه بالله وبسننه المطردة.

ومما نلفت النظر إليه أن عقيدة السببية ثابتة ومطردة فى عالم الطبيعيات كما هى ثابتة ومطردة أيضًا فى عالم الاجتماع البشرى، ولا فرق فى ذلك بين نتائج القانون فى العالمين الطبيعى والبشرى.

فإن ذلك كله يخضع لعقيدة السببية التى عبر عنها القرآن الكريم بالسنة والسنن قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وللأسف الشديد فإن المسلمين قد أهملوا تمامًا الإيمان بعقيدة السببية فلم يعتبروها فى مسيرتهم التاريخية ولم يعتبروا بسنن الأولين، كيف قامت الحضارات ولماذا اندثرت وكيف قامت الممالك ولماذا انهارت لغيابهم عن الاعتقاد بأن سنة الله جارية لا تتخلف أبدا، ومن المهم أن نشير هنا إلى أن عقيدة الأسباب محايدة لا تعرف المجاملة ولا المحاباة، فمن أخذ بأسباب النصر لا بد أن ينتصر حتى ولو كان غير مسلم ومن أخذ بأسباب النهضة لا بد أن ينهض مهما كان دينه واعتقاده حقا أو باطلا صوابا أو خطأ، ومن أهمل هذه العقيدة فلم يأخذ بها لا بد أن يجنى هذا الإهمال تخلفًا وهزائم وهوانًا ومذلة.

وأخيرًا فانظر بطرفك فى الأمم الناهضة فى عصرنا لنتعلم منها كيف أخذت بأسباب النهضة فنهضوا مع أن منهم من يعبد البقرة – حتى الآن – ومنهم من يعبد النار – حتى الآن – ومنهم من لا دين له، لنعلم من ذلك أن عقيدة السببية دين والتزام نبهنا إليها القرآن وحذر من إهمالها، فإذا أردنا

النهضة فعلينا أن نبحث عن أسبابها النفسية والروحية والمادية لتستقيم مسيرة النهوض.

خلل فى إرادة النهوض

(٦)

مما لا ريب فيه أن واقع الأمة الإسلامية المعاصر يمثل منعطفا تاريخيا لم يحدث أن عاشته الأمة من قبل؛ تفرقا فى الرأى والهدف. واختلافا فى الأهواء والانتماءات، وبالتالى تحزبا وتعصبا إذ كل حزب بما لديهم فرحون مما يسر لعدوهم أن يلتهم أوطانهم بلدا وراء الآخر بعد أن حدد مواقف الأقطار الأخرى مستعملا معهم سلاح الترغيب والترهيب، ولا شك أن هذا الواقع المؤلم قد طرح على عقول المفكرين أسئلة عديدة: كيف ولماذا وصل الأمر بالأمة الإسلامية إلى هذا الواقع المتردى، مع أنها تملك وسائل النهوض التى حرم منها كثير من البلاد الأخرى؟!

إن الأمة الإسلامية تملك الأرض والماء، وتملك الثروة والطاقة، وتملك العقول وأصحاب الرأى، ومع ذلك ما زالت معظم البلاد الإسلامية تأكل مما يزرع غيرها، وتلبس مما ينسج غيرها، وتستعمل الآلات التى صنعها غيرها. فأين الخلل إذًا، وبماذا وإلى متى سيظل العالم الإسلامى يحيا على هامش التاريخ بعد أن كان صانعًا له؟ ولعل من أهم الأسباب التى أوصلت الأمة إلى هذا الواقع المؤلم افتقاد الإنسان لإرادته وذاتيته وخاصة أهل الرأى والفكر فى الكثير من البلاد الإسلامية، فإن إرادة النهضة لا

يجسدها فى الواقع إلا عقول هؤلاء العلماء ولا يترجمها إلى حياة يعيشها الإنسان إلا فكر هؤلاء العلماء، وعلى يدهم يتم النهوض بالأمة؟.

وهنا يأتى السؤال التاريخى. هل هيأت الأمة الإسلامية لعلمائها ومفكريها البيئة النفسية والمناخ الفكرى الصالح لكى يشغلوا أنفسهم بقضايا الأمة؟ عليك أن تدور بناظريك فى موقف الأمم الناهضة من علمائها ومفكريها وقضايا البحث العلمى وقارن ذلك بموقف الأقطار الإسلامية من علمائها ومفكريها لتجد الإجابة على السؤال المطروح .. كيف ولماذا وصل واقع الأمة الإسلامية من علمائها ومفكريها إلى هذا الوضع المتردى؟ وأظن أنه من غير المقبول هنا التذرع بالأوضاع الاقتصادية للدول الإسلامية لأن من بين هذه الدول الإسلامية من يملك من الثروة ما لا نظير له فى البلاد الناهضة. ولكن هم عرفوا كيف وأين تنفق الأموال وتستثمر الثروات أما نحن فقد تاهت ثرواتنا فى أضابير النزوات والأهواء الشخصية. ويقينى أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أثر الاستبداد فى إعاقة النهضة

(٧)

أعنى بالاستبداد هنا المعنى الجامع لكل مظاهر الطغيان الذى يمارسه فئة من البشر نصَّبوا أنفسهم وكلاء عن الله فى توزيع ثوابه وعقابه على من يريدون من الناس بدون ضوابط ولا معايير إلا التنفيس عن رغبة جامحة وهوى متبع، وليس البلاء فى ذلك قاصرًا على نظام حكومى معين بل هو شائع فى معظم المؤسسات الاجتماعية والحكومية فى شتى بلاد

المسلمين. ولقد عرف الكواكبى هذا النوع من الاستبداد بأنه "تصرف يقوم به فرد أو جماعة فى حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة أو هو تصرف الحكومة التى لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون" وفشو ظاهرة الاستبداد فى العالم الإسلامى قد أثر فى نهضة الأمة تأثيرًا سلبيًّا، لقد قتل الهمة والإرادة والعزيمة فى الإنسان. فالإنسان حين يخالجه الإحساس بضياع حقوقه وامتهان كرامته ومحاصرة عقله وفكره ورأيه واستلابه حق التعبير والمشاركة فى تدبير شئون وطنه، فإن ذلك كله ينعكس على الأمة حيث ينسحب المفكر وصاحب الرأى من ساحة العمل الوطنى وقيادة الأمة ليحتل مكانه صاحب الهوى وذو الثقة فيسند الأمر إلى غير أهله. والويل كل الويل لأمة أسند الأمر فيها إلى غير أهلها. عند ذلك تسود النزاعات الفردية ويحل الظلم والطغيان محل العدل والمساواة وهذا هو النذير العريان فى خراب العمران وسقوط الدول. قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُم لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥]، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ٣٩] و[القصص: ٤٠] ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِم رَبُّهُم لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]، وهذه إحدى سنن الله فى إقامة الممالك وانهيارها فإن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة فهذا قانون عام فى انتظام الملك أو انهياره، ولا علاقة بهذا القانون الإلهى بدين أو ثقافة فمتى وجد الظلم والاستبداد فى أمة فانتظر نهايتها المؤلمة واعلم أن ذلك مؤذن بخراب الدولة.

يقول ابن خلدون: (فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران: اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن مصيرها وغايتها انتهاؤها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك، وعلى قدر الاعتداء على الرعية، يكون انقباض الرعايا عن السعى والاكتساب، وإذا أجبر المرء على العمل تحت سيف الظلم فإنه لا ينتج إلا مقتلة للوقت والجهد.

الهزيمة النفسية

(٨)

يعيش المسلم المعاصر حالة من الانهزامية النفسية يستشعر خلالها نوعًا من الإحساس بالدونية إذا ما قارن واقعه المعاصر بواقع الأمم الناهضة وهذه الهزيمة النفسية تمثل هدفًا مقصودًا وغاية منشودة يسعى العدو إلى زرعها فى المجتمع المسلم بصفة عامة والأمة العربية بصفة خاصة، وقد يستعين على تحقيق هدفه الخبيث ببعض الأقلام التى تربى أصحابها على موائد الاستعمار ليكونوا وكلاء عنهم وسماسرة لترويج فكرهم الانهزامى بين شباب الأمة، وقد يسعون إلى ربط هذا التخلف الذى يعيشه المسلمون بتراثهم ودينهم وقرآنهم ويجعلون من الدين سببًا فى إعاقة النهضة كما قال ويقول ذلك كثير من المستشرقين.

ولا شك أن الشعور بالدونية والإحساس النفسى بالانهزامية مرض خطير ينبغى اقتلاعه من بين صفوف الأمة لأن ذلك قد يؤدى إلى شيوع

روح اليأس بين الشباب فيقعدهم عن العمل والنهوض والانكفاء على الذات وعدم المبادرة وقتل روح الابتكار والإبداع، وينبغى محاربة هذه الظاهرة والقضاء عليها بقراءة تاريخ الأمة ومعرفة النوازل التى مرت بها وحاولت إعاقة حركتها وكيف حول المسلمون هذه النوازل إلى منطلقات لحركة الأمة لتواصل مسيرتها من جديد، وهذا يقتضى من المفكرين أن يعملوا على بث روح القوة والاعتزاز بالذات ومعرفة أن للحضارات أعمارًا وأن سنة التدافع ماضية بين البشر وهى التى تحرك التاريخ وتصنعه وتلك الأيام نداولها بين الناس، وإرادة الأمة للنهوض لا بد لها من قوة دافعة تحركها لتحقيق غايتها المقصودة وهذا لا يتم إلا بالقضاء على هذه الروح الانهزامية والإحساس بالدونية، والأهم من ذلك أن يعى الجيل الدرس المستفاد ويأخذ العبرة من الواقع ولا يترك الأحداث تمر فى غفلة منه دون أن يتساءل عن الأسباب، إن عقدة الإحساس تمثل عاملا خطيرا يعوق إرادة النهضة ويقضي على روح المبادرة فلا تنهض النفس للحركة ولا يكون لها نزوع إلى العمل والتغيير بل تكون أقرب إلى الخمول ومحبة الكسل وتفضيل القعود على النهوض، ولقد حذر كثير من مؤرخى الحضارات من خطر هذه الظاهرة النفسية التى تنتاب الشعوب المهزومة وما يترتب على ذلك من حدوث خلل واضطراب فى إرادة الأمة يترتب عليه محاولة الاكتفاء بتقليد المغلوب للغالب واتخاذ المنتصر مثالا وقدوة للمهزوم، وما بالك إذا كان الغالب فى زماننا هو الذى يفرض علينا ضرورة تقليده ومتابعته حدو القذة بالقذة، إن تغيب إرادة الأمة للنهوض نتيجة هذا الإحساس بالدونية يشكل نذيرًا بفناء الأمة وانمحاء شخصيتها وفقدان هويتها وقتل خصوصيتها.

obeikandl.com

صلتنا بكتاب الله

(٩)

لقد نزل القرآن الكريم على العرب وهم أمة أمية تعيش فى جاهلية عمياء فأعاد صياغتها من جديد، نفسيًا وعقليًا ووجدانيًا حتى كانت المعجزة التى أذهلت العالم حيث استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يفتح بهذه القلة القليلة فى العدد والعدة بلاد الفرس والروم وأن ينشر دعوة الإسلام شرقًا وغربًا، لأنه أحسن بناء الإنسان وأجاد تربية الأمة التى صاغها القرآن صياغة جديدة فحملت حضارة القرآن إلى العالم كله، لأنهم حين قرءوا القرآن وفقهوا مقاصده وغاياته تحولوا تلقائيا من عصبية القبيلة إلى الشورى ومن ظلم الجاهلية إلى عدل الإسلام، قال أبو عبد الرحمن السلمى: "كنا نتعلم العشر آيات من القرآن ولا نتجاوزها حتى نعلم ما فيها من علم وعمل" هكذا حتى صار الواحد منهم فى سلوكه وفى علاقاته قرآنا يمشى على الأرض، ولقد جسدت السيدة عائشة رضى الله عنها هذا المعنى التربوى النبيل حين سئلت عن الرسول صلى الله عليه ةسلم فقالت: "كان خلقه القرآن" فكان عقله وقلبه مع الله وبالله حين يقرأ آيات تتحدث عن الله، ومع الكون فى آياته الباهرة وآلائه فى تدبر وتفكر حين يكون الحديث عن آيات الله الكونية وأسرارها، ومع دروس التاريخ وعبره حين يكون الحديث عن الأمم الماضية وتاريخهم ومصائرهم، ومع الآخرة وأحوالها حين يكون الحديث عن يوم القيامة ومصائر عباد الله فيها، فكان صلى الله عليه وسلم يعيش مقاصد الآيات وأهدافها، ولا يكتفى بمجرد تلاوة اللسان التى قد لا تتجاوز الحناجر. وعلى هذا النحو من الفقه والتدبر والمعايشة كان موقف

الرسول وصحابته من القرآن الكريم تلاوةً وتأملاً وذكرًا وفكرًا حتى تشربت قلوبهم معانى القرآن الكريم فصاغت الأمة كلها صياغة قرآنية.

وما نجده فى واقعنا المعاصر يختلف تماما عما كان عليه جيل الصحابة والتابعين حيث تحول اهتمام المسلمين بالقرآن إلى ممارسات شكلية وأعمال مظهرية ليس لها أثر فى سلوك الفرد ولا فى تشكيل وجدان الأمة، لقد انصرف اهتمام المسلمين بقرآنهم إلى مجاهدات مضنية فى التلاوة وضبط مخارج الحروف بين حلقى وشفوى ولهوى ومجاهدات مضنية فى كيفية الغنّ والمد المتصل والمد المنفصل وما إلى ذلك مما يتصل بالمحافظة على شكل الكلمات القرآنية متلوة على اللسان، أما محاولة الفهم والتأمل وتحويل معنى الآية إلى واقع يعيشه المسلم فهذا قد انصرفت عنه جهود الأمة حتى حل بها ما هى فيه.